السورية يأتي من الموقف تجاه أسلوب «العنف المسلح» الذي لجأ إليه «الإخوان»، وأيضاً تجاه الدخول في استقطابات إقليمية جعلت «الإخوان» على خط بغداد ـ عمان آنذاك، رغم اشتراك «بعث العراق» في محادثات خريف 1979 لتأسيس «التجمع»، وكان عدم توقيعه على ميثاقه بسبب إصراره على تضمينه عبارة «التغيير عبر كل الوسائل الممكنة». وهو ما رفضته الأحزاب الخمسة المؤسسة للتجمع بسبب رفضها لطريق العنف الذي كان ينتهجه «الإخوان» يومذاك بتشجيع من العاصمة العراقية.

في الثمانينيات، ورغم التباين داخلياً، كان للمعارضة السورية ـ بمحوريها ـ مواقف متقاربة، في المواضيع العربية، بمحطات مفصلية افترقت فيها عن مواقف النظام، حيال الحرب العراقية ـ الإيرانية (1980 ـ 1988) والاجتياح الإسرائيلي للبنان (1982) وأزمة وحرب الكويت (1990ـ1991) وتسوية مؤتمر مدريد (1991).

يمكن هنا أن تكون النبرة الجذرية التغييرية قد افترقت عند «التجمع» في التسعينيات عمّا هي عند «الإخوان»، عندما اتجه، بتأثير المرحوم جمال الأتاسي وقيادة ما بعد حملة اعتقالات أيلول 1987 للحزب الشيوعي ـ المكتب السياسي، نحو «سياسة إصلاحية»، بدلاً من «البرنامج التغييري» الذي ظل قائماً طوال الثمانينيات للوضع السوري، بدءاً من الرسالة الداخلية المؤرخة في شهر كانون الأول/ ديسمبر 1989، الموجهة من قيادة «التجمع» إلى كوادر وقواعد الأحزاب المنضوية فيه، وإلى سجنائه في السجون المختلفة، وهذا ما

> لما ووجه «الإخوان» بشروط صعبة احتفظوا بالسقف العالي السابق

كان يمكن تلمسه في الأعداد الصادرة لجريدة التجمع: «الموقف الديمقراطي»، طوال عقد التسعينيات، بدءاً من العدد الأول في أوائل شباط 1991، حيث يلمس تقيّدها بالخطوط الحمر والخضر والصفر، في اتجاه عام نحو تجنب سياسات يمكن أن تؤدي إلى ضربات أمنية جديدة، والتي كان آخرها ـ عدا اعتقالات فردية في التسعينيات ـ حملة اعتقالات ربيع 1990 في يبرود للحزب الشيوعي ـ المكتب السياسي، واعتقالات طالت بعض كوادر وقيادات «الاتحاد الاشتراكي» في فترة حرب 1991، فيما شهد عقد الثمانينيات منذ آذار 1980 ست موجات اعتقال لـ«المكتب السياسي» كانت أضخمها تلك التي حصلت في شهر تشرين الأول1980، التي شملت الأمين الأول للحزب رياض الترك. هذا لا يعني أنّ «الإخوان المسلمين» لم يدخلوا في مفاوضات مع النظام، في أعوام 1984 و1987 و1996، ولكنها فشلت في الوصول إلى توافق بين طرفي أحداث 1979 ـ 1982، وربما كان هذا الفشل هو السبب الذي جعل «الإخوان» لا ينزلون من سقف خطابهم السياسي رغم تلك الجولات من التفاوض بينهم وبين النظام، فيما قام «التجمع» بذلك منذ كانون الأول 1989 بناءً على استراتيجية أوضحها المرحوم جمال الأتاسي في رسالة في تموز 1993، بعث بها إلى سجناء «التجمع» في القسم السياسي لسجن عدرا، ومنهم ناصريون وشيوعيون وشباطيون، بأنها «تنبني على فتح كوات في جدار القمع»، وليس على «برنامج التغيير» كما كان الأمر في عام1980، منطلقاً من تغير التوازنات، وما كان يعتبره هو شخصياً منذ نيسان1980، بخلاف رياض الترك، «ميل ميزان القوى لصالح النظام منذ ذلك الشهر» وضرورة بناء سياسات جديدة مختلفة عن تلك التي قدمها «التجمع» في بيان 18 آذار 1980.

في مجمل لثلاثين عاماً: لم تنبن المعارضة على الوضع الداخلي أولاً، بل كان المعارضون اللاحقون (ما عدا بعثيي 23 شباط وبغداد) في العامين الأولين من عهد 16 تشرين الثاني 1970 في حالة ترحيب بالعهد الجديد بالقياس إلى عهد صلاح جديد، وهذا يشمل جماعة الإخوان المسلمين. لم ينخرط كل «الإخوان» في أحداث عام 1973، لكن ظلوا «وظل النظام» في حالة حرص على عدم الصدام حتى دفعهم «تنظيم الطليعة»، المنشق عنهم، إلى مجابهة السلطة في أحداث 1979 ـ 1982. كان القفز للمعارضة الصريحة عند غير الاسلاميين بسبب التدخل السوري في لبنان، ثم كان انخراط الجميع في معارضة 1979 ـ 1982 مبنياً على أجندات داخلية، ولو لم تكن أصابع صدام حسين بعيدة بهذا الشكل أو ذاك. لم يكن النزول من أعلى شجرة المعارضة مع انتصار النظام الأمني على المعارضة يسيراً عند غير الاسلاميين، ولو كان هذا عبر طريق تخفيض السقوف من دون التلاقي أو الاتفاق مع النظام، فيما سعى «الإخوان» للاتفاق مع السلطة خوفاً من تحولهم مع الزمن إلى تنظيم خارجي، ولما ووجهوا بشروط صعبة، احتفظوا بالسقف العالي السابق. كان عدم قدرة النظام على الترجمة السياسية لانتصاره الأمني على المعارضة في أحداث 1979 ـ 1982 هو السبب الأساسي في انتقال مكونات المعارضة في عهد 16 تشرين الثاني1970 لكي تكون هي المكون الأساس لمعارضة العهد الجديد الذي بدأ يوم 10 حزيران 2000.

* كاتب سوري

فردية وجهويه خاصة. وكان هذا يصبّ في مصلحة الأطراف المناوئة للحراك. فانكفاء الشباب الواعي نتيجة عجزه وفشله الذي تقاطع مع عجز أشباه القوى السياسية وموجات العنف العارية، وتداعي المجموعات الجهادية (لنصرة الإسلام والمسلمين في سورية) فتح المجتمع على بركان العنف. وملاحظ أن بعض الأطراف السياسية ومن يدّعي المعارضة ممن هرب خارج الحدود، واندمجوا بدول تحارب أي تحول ديمقراطي، تحوّلوا إلى أدوات لتنفيذ أجندات دولية وإقليمية هدفها تدمير ما تبقى من كيانية الدولة وتفتيت المجتمع الذي يجري الاشتغال على إدخال مكوناته في صراع لا يخدم إلا مصالح إسرائيل وبعض الدول الضالعة في الأزمة.

كذلك فإن عقوداً من السيطرة الأمنية والسلطة الشمولية كانت مسؤولة عن تغييب الشباب وتهميشهم، وتدمير بقايا الحياة السياسية، وعن انزياح الحراك السلمي إلى آليات وأدوات عنفية قهرية، يتربع على سدتها أمراء الحرب بكافة تنويعاتهم وانتماءاتهم، ليتحول الوطن إلى ساحات حرب دامية، تعج بروائح الدم ومظاهر العنف والحقد والتعصب والهدر التي فتحت المجتمع السوري على المجهول.

أما في ما يتعلق بنتائج ما يجري، فإنه لم يتوقف عند انكفاء الشباب الحالم بالتغيير، بل انعكس وينعكس على ذواتهم بأشد الأشكال والمستويات مأسوية. فهم لم يعودوا قادرين على العودة إلى سابق عهدهم. فتشجيع فريق رياضي والتعصب له، أو تمضية الوقت بين دفتي الكتاب أو عودتهم إلى قارعات شوارعهم الحافلة بالذكريات، أو تمضية بعض الوقت أمام الكومبيوتر والتلفاز، لم تعد ممكنة، وإن توافرت في بعض اللحظات، فإنها لا تستطيع أن تنتشلهم من حالة الإحباط واليأس. فالفراغ ملأ أوقاتهم. وجلّهم لم يعودوا قادرين على متابعة تعليمهم، وشوارعهم مغلقة دونهم. والحياة الطبيعية شبه معدومة، ويومياتهم المعتادة باتت من الذاكرة، فحل مكانها الإحباط والاستقطاب واليأس والعجز. والأخطر، هو توظيف الدين وتململ الشباب من واقعهم واستغلال مشاعرهم وحماستهم لدفعهم إلى ميادين القتال.

إضافة إلى ذلك، فإن الهجرة القسرية في الداخل واللجوء إلى الخارج، صعّدا من حدة الاستقطاب والتعصب والظلم في سياق الاصطفاف القهري الذي يحصل في كثير من الأحيان على أسس الانتماء العقائدي السياسي والمذهبي المفرغ من مضامينه الحقيقية.

فمحاولات التفرد من قبل بعض الأفراد والمجموعات، واشتغالها على السيطرة والتحكم في دفة الصراع، عبر نزعات أنوية متضخمة وادعاءات غير صحيحة، كان من نتائجها المزيد من الإقصاء والتخوين واعتماد العنف المتبادل، حتى بين الأطراف التي تدّعي تمثيل «الثورة»، وأيضاً إقصاء الشباب السلمي وأصحاب العقلانية السياسية الذين لا يرون في العنف مخرجاً من الأزمة، وتخوينهم واتهامهم بالعمالة من قبل أطراف الصراع. هذه الآليات وغيرها كانت تُمارس من أجل دفع الشباب إلى حقل العنف. كذلك فإن خروج الشباب من ساحات الحراك السلمي وانكفاءهم كانا مرتبطين بدخول المجموعات الجهادية التكفيرية على خط الصراع، ليرتفع بذلك مستوى التوتر والعنف والاستقطاب الذي أحدث تحولاً في أهداف التغيير الديمقراطي ومساراته وآلياته.

إضافة إلى كل ما سبق، فإن الأسرة التي كانت تمثّل الحضن الدافئ لم تعد كذلك، فقد حولتها تناقضات الأزمة إلى كيان مضطرب مهدد بالتشظي والتفتت وحتى الانهيار، وما ازدياد حالات الطلاق والانفصال والهجر وانقطاع

> قوى رأس المال تعمل على تحويل دول المنطقة إلى بؤر متوترة لتصفية الحسابات الدولية

أشكال التواصل بين أفراد الأسرة إلا دليل على ذلك. فالشباب لم يعودوا يرون في شكل الأسرة وواقعها ملاذهم الآمن. ومع هذا فإن بقايا القيم الأخلاقية وقليل من الهدوء والعقلانية... تبقى الضامن لتماسك الأسرة.

إن جميع العوامل التي استعرضناها ساهمت في ارتكاس الشباب إلى تشكيلات المجتمع الأولية، وإلى أكثر السلوكيات إشكالية. وما الانغلاق على الذات أو الانفتاح العبثي غير المعقلن إلا تعبير عن واقعهم المأزوم. فطريقهم إلى المشاركة في الحراك كان محمولاً على الكثير من الأحلام والآمال. أما طريق عودتهم فإنه محملاً بالإحباط واليأس، وبالمزيد من الإحساس بالعجز والفشل والخيبة والمرارة، وبفقدان الثقة بالمعارضة التي تزداد تفتتاً وعجزاً وارتهاناً، وبالسلطة التي عجزت حتى اللحظة عن إيجاد حل يحفظ دماء السوريين، وبأطراف الصراع المسلح التي تعتاش على الدماء والجثث والخراب. وهذه العودة تحمل الكثير من التخلف الاجتماعي والنكوص إلى عمق الوعي المتخلف، الذي يجري استنهاضه واستثارته بأدوات عقائدية قهرية وعنفية تهدد المستقبل السوري بمزيد من الكوارث الاجتماعية والإنسانية.

فالشباب في اللحظة الراهنة على عتبة الضياع وتلاشي الحلم. فهم لم يعودوا يفتقدون الثقافة والسياسة العقلانية فقط، بل باتوا يفتقدون في ظل العنف الطاغي الذي يدمّر ذواتهم ويطحن أحلامهم، آدميتهم وإنسانيتهم. وحتى الآن، فإن آفاق إنقاذ ما تبقى للشباب من قيم وفكر وإنسانية وكرامة، ما زالت مسدودة، أو بنحو أدق يجري الاشتغال على إغلاق الأبواب دونها. أمام هذا العجز، لا يسعنا إلا التأكيد على العقلانية السياسية والتمسك بالمفاهيم والقيم الوطنية الكبرى، حتى وإن بدت مخالفة للضرورة التاريخية التي يحاول رسم ملامحها صنّاع الحروب التي تطحن المهمّشين والمستضعفين الذين تحولوا إلى أدوات في بركان العنف الذي يحتاج استمراره إلى مزيد من الوقود والضحايا.

* باحث وكاتب سوري